عداد المشركين مهما كانوا منحرفين في عقيدة التوحيد، ولكنهم تجمعهم كلمة التوحيد: أن ليسوا وثنيين.

ومن الملاحظ أن الأوليين تحكمان بالنجاة لمن آمن منهم إذ لم يكن بينهم مشركون، ثم الثالثة تأتي بكلمة الفصل فيما بينهم بدل النجاة، حيث الانفصالية للذين أشركوا عمن سواهم في عقيدة التوحيد، مما يبرهن أن العبرة في مجال النجاة إنما هي بحقيقة العقيدة، دون عصبية جنس أو طائفية أم ماذا من الفوارق؟

لذلك ترى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لا تكفي نجاة بمجرد أنهم مسلمون، كما الألقاب الأخرى على سواء، اللهم إلّا بانضمام الحقيقة إلى الادعاء: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ دون الادعاءات الخاوية الجوفاء من: مسلمين أو الذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس أم من ذا؟ من المنسلكين في سلك التوحيد بألسنتهم - فقط - أم وفي عقائدهم أيضاً، إلّا بمظهر العمل الصالح للإيمان بالله واليوم الآخر.

فـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هنا هم المسلمون المؤمنون بالرسالة الإسلامية دون المنافقين إذ لا إيمان لهم ولا عمل صالحاً، إنما هم المؤمنون، دخل الإيمان في قلوبهم أو لمّا يدخل وهم في سبيل الإيمان، وهذه مواصفة للمسلمين غير المنافقين في مئات الآيات تكريماً لهم بكرامة الإيمان، دون الألقاب الخاوية الأخرى[1] ولا ينافي تكرارَه ذيلُ الآية بملحقات أخرى ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم...﴾[2] حيث المعني من الأول مطلق الإيمان والآخر هو

(١) تتكرر هذه المواصفة لهم في القرآن (٢٥٨) مرة في مختلف الواجهات، والدرجات الإيمانية، ولكنما المنافقون لا يعبر عنهم إلّا به أو يشملهم المسلمون حيث يعمّهم والمؤمنون بقلوبهم والذين هم في سبيل الإيمان.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

الإيمان المطلق كما في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ...﴾[١]..

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود، يذكرون بهذه الصيغة في آيات عشر، وكما يذكرون هوداً أو اليهود، وعلّ الأصل من «هدنا إليك»[٢] رجوعاً عما طلبوا من رؤية الله جهرة، وعما عبدوا العجل، إلى الله وحده حيث مقالهم: ﴿...وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ...١٥٧﴾[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قد تأتي عَلماً لليهود كطائفة، هادوا هكذا أو لم يهودوا، كما هنا حيث يستثنى أخيراً في النجاة من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً كما للمؤمنين وسواهم من المذكورين، وقد تأتي تنديداً وتعريضاً بالذين سمّوا هوداً ولم يهودوا: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٤] ولم تأت كمدح ومواصفة لهودهم ورجوعهم إلى الله إلّا في آية يتيمة هي الأصل في تسميتهم هوداً: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾[٥] ثم اشتقت منها صيغ الهود واليهود تنبيهاً على الأصل، وتأنيباً على الشاذين عن هذا الأصل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٢) الدر المنثور ١: ٧٤ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجي عن علي عليه السلام قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: إنا هدنا إليك.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

(٤) سورة الجمعة، الآية: ٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآتية في (١٤) موضعاً علّه جمع نصري[١]: المنسوب إلى النصر حيث ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[٢] لما قال المسيح ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣] كما وأن المسيح والحواريين كانوا في «الناصرة» حيث يقال: «المسيح الناصري»[٤] ولكنما الأصل في «النصارى» قرآنياً وفي اللغة هو النصري، وليس الناصري، مهما لمح إليه النصري هامشياً[٥].

وكما كانت «هود» كذلك «النصارى» تأتي عاماً كما هنا حيث تشمل المؤمن الناصر للحق، والمنتسب إليه بالهوية، وتأتي عاماً بترك النصرة: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[٦] كما وتأتي مدحاً بالنصرة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[٧].

(١) هذا هو المشهور من مفردها مثل صهري وصهاري، وفي غريب القرآن للراغب: سموا بذلك انتساباً إلى قرية يقال لها نصران فيقال: نصراني وجمعه نصارى أقول: هذه القرية هي الناصرة ومنسوبها ناصري لا نصراني، ثم الناصري ليست جمعاً للنصراني وإنما جمعها نصرانيون، وجمع الناصري أيضاً ناصريون، ولا يناسب النصارى هذه المفردات، وإنما نصرى أو نصري والثاني أوفق بالنسبة إلى النصر المدلول عليه في مقالة النصارى: نحن أنصار الله، وفي الكشاف أنها جمع نصران، أقول: عله مثل سكران سكارى ولكن فاء الجمع هنا مضموم وهناك مفتوح إذاً فمفردها بين نصري ونصرى.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٤) في قاموس الكتاب المقدس: ذكرت الناصرة (٢٩) مرة في العهد الجديد، ولقد أمضى المسيح أيام طفولته فيها فاشتهرت بوطنه ولقب المسيح الناصري كما الحواريون ناصريون (متى ١٣: ٥٤ - ٥٨) - (مرقس ٦: ١ - ٦) - (اعمال الرسل ٢: ٢٢ و٣: ٦ و٤: ١٠ و٦: ١٤) والجيل السادس من المسيحيين أخذوا يزورون الناصرة.

(٥) نور الثقلين ١: ٨٥ في عيون الأخبار بإسناده إلى الرضا عليه السلام قيل له: فلِمَ سمي النصارى نصارى؟ قال: لأنهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام نزلها مريم وعيسى بعد رجوعهما من مصر أقول: لم يكن كل النصارى من الناصرة، وإنما هو المسيح والحواريون، وقد تناسب هذه النسبة على هامش النصرة الإلهية كما قلناه.

(٦) سورة التوبة، الآية: ٣٠.

(٧) سورة المائدة، الآية: ٨٢.

﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ هم الذين صبأوا وانتقلوا من دين إلى دين، فهل من دين التوحيد إلى الشرك؟ وهذا ينافي ردفهم بالموحدين ونجاتهم بالإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات، كذلك ومقابلتهم بالذين أشركوا! إذاً فهم الصابئون من الشرك إلى التوحيد،(١) متحللين عن أي كتاب سماوي، أم صابئين من توحيد كتابي كشريعة إبراهيم إلى شريعة خليطة من وحي الأرض الزردشي ووحي السماء الإبراهيمي كما تؤيده الروايات(٢) كما المجوس أيضاً من الموحدين(٣) مهما أخطأ هؤلاء وهؤلاء في توحيد الله، وفي الصبوء والتمجّس عن الشريعة الكتابية، ومهما يكن من شيء فليس الصابئون والمجوس من أهل الكتاب تماماً مهما يحترم فريق منهم النار إلّا أنه ليس لحد الإشراك بالله، وعبادة من دون الله.

هؤلاء الطوائف الخمس الموحدون، من كتابيين وسواهم، هم المشهورون المذكورون في القرآن بأسمائهم، وقد أجمل عن ذكر موحدين آخرين كانوا أو تكوّنوا أم سوف يكونون، من ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهكذا تحدد شاكلة الإيمان المنجي أولاً وأخيراً كضابطة عامة تحلّق على الألقاب: مسلم - يهودي - نصراني - صابئي - مجوسي أمّن ذا؟

---

(١) كان العرب يسمون النبي ﷺ صابئاً لأنه أظهر ديناً بخلاف أديانهم.

(٢) الدر المنثور ١: ٧٣ - أخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده وابن أبي حاتم عن سلمان قال: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكر من صلاتهم وعبادتهم فنزلت الآية - أقول ولا شك أن من كان سلمان معهم ومنهم هم الزرادشت الإيرانيون.

(٣) وفيه عن وهب بن منبه الصابئي هو الذي يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ومن المحتمل إنهم اتباع ماني وعلى حد المروي عن الصادق عليه السلام وقد سئل لِمَ سمي المجوس مجوساً؟ قال: لأنهم تمجسوا في السريانية وادعوا على آدم وشيث وهو هبة الله انهما أطلقا نكاح الأمهات والأخوات والبنات والخالات والعمات والحرمات من النساء ولم يجعلوا لصلاتهم وقتاً وإنما هو افتراء على الله وعلى آدم وشيث (مجمع البحرين).

فمن مات على غير الإيمان بالرسالة الإسلامية موحداً: كتابياً من هود أو نصارى، أم غير كتابي كالصابئين والمجوس، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ شريطة القصور والاستضعاف حيث لم يسمعوا بهذه الرسالة[١] أو لم يعرفوا حقها، دون المقصرين في التعرف إليها، أو الذين ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

فالجحد بآيات الله وتكذيب آيات الله ينافيان الإيمان بالله، ونكران يوم لقاء الله ينقص من الإيمان بالله، وترك الصالحات التي تناسب الإيمان، دليل على خواء الإيمان، فهؤلاء ليسوا من المبشَّرين بالأجر وعدم الخوف والحزن، وإنما هم المؤمنون بالله واليوم الآخر والعاملون الصالحات، ومهما كانوا درجات في مثلث الإيمان، فهم درجات في مثلث النجاة، كما أن من سواهم دركات في اللّاإيمان واللّانجاة دون تسوية هنا وهناك ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٣] ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٤] في نقير الإيمان وعمل الصالحات، دون ترسب على عنصريات أو طائفيات فبعدما ضربت آية الضرب الذلة والمسكنة على اليهود، تستدرك هذه الآية عما ربما يختلج بالبال أنه خاص باليهود، فهناك بينت سبب الذلة المسكنة أنه الكفر والتكذيب والاعتداء أينما كانت، وهنا تبيّن سبب النجاة في مثلثه أينما كان،

(١) الدر المنثور ١: ٧٤ - أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: سأل سلمان الفارسي النبي ﷺ عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم؟ قال: لم يموتوا على الإسلام، قال سلمان: فأظلمت علي الأرض وذكرت اجتهادهم فنزلت هذه الآية: «إن الَّذِينَ هادُوا»... فدعا سلمان فقال ﷺ:
«نزلت هذه الآية في أصحابك، ثم قال: من مات على دين عيسى قبل أن يسمع بي فهو على خير ومن سمع بي ولم يؤمن بي فقد هلك».
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٣) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

دون فرق بين الموحدين، من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ﴾[1] لا هنا ولا هناك!

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ على غرار ما آمنوا وعملوا ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في عالم الرب يوم الأجر والجزاء ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لما فات عنهم جمعاً لهم بين أمن الحاضر والمستقبل والغابر.

(١) سورة الحج، الآية: ١٧.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

الميثاق هنا هو ميثاق الكتاب حيث يشمل المواثيق كلها، ميثاق واحد هو جمعية الميثاق، كما توحي له وحدة ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ ويصرح به ميثاق الكتاب: ﴿. . . أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ. . . وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ. . . وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ. . .﴾[1].

وقد رفع فوقهم الطور بميثاقهم المأخوذ عليهم: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾[2] حيث سببه الميثاق لكي يعرفوا مدى تحمّل الميثاق وحمله كما يرفع الطور بقوة، وحتى يخافوا من ترك الميثاق فقد أمروا حينه: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ كما هنا وفي الأعراف، أو

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦٩ - ١٧١.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

«واسمعوا ما فيه» كما في أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ فالأصل هو أخذ ما أوتوا بقوة، بأن يذكروا ما فيه ويسمعوا ويعوا ثم يعملوا.

ولقد رفع الطور فوقهم نتقاً: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] فالجبل هنا هو الطور دون ريب كما توحيه لام التعريف، ولم يكن المعروف عندهم إلّا الطور كما وهو في التوراة «طور» أو: جبل الزيتون، والجبل الذي أمام أورشليم، والذي على شرقي البلد.

ونتق الشيء جذبه ونزعه حتى يسترخي كنتق عرى الحِمل، فقد جذب الله الطور ونزعه فاسترخى فرفعه ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

مع نتق الجبل فوقهم بميثاقهم نراهم في مثلث الأمر حيث حِمله كحِمل الجبل: ١ - ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ بقوة الأبدان والقلوب[2] حيث يعم التكاليف البدنية والنفسية: عقلية أم قلبية، استجاشة لكافة القوى حتى يتم الأخذ الذي يحمل آخذه على التقوى.

٢ - ﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ حيث الأخذ الصحيح ليس وارداً إلّا بعد الفهم الصحيح، وتذكُّر ما فيه، دون غفلة وغفوة، أو لفتة عما فيه.

٣ - ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ بسماع آذانكم[3] ما يقرأ عليكم رسولكم حيث يقرع به

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧١.

(٢) تفسير البرهان ١: ١٠٥ - العياشي عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] - قوة في الأبدان أم قوة في القلوب؟ قال: فيهما جميعاً ورواه عن ابن بابويه مسنداً إلى إسحاق ويونس مثله.

(٣) لأن «اسمعوا ما فيه» يذكر في آيته بدلاً عن ﴿وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٦٣] في آيتيه، نعرف أن سمع ما فيه هو سمع القلب كما الذكر هو فعل القلب، فسمع القلب هو ذكره وذكره سمعه، يتجاوبان في آيتيهما.

أسماعكم، ومن ثم بآذان قلوبكم لكي يكمل الوعي، فيحصل العمل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: حيث إن فطنة الاتقاء ومغبته ليس إلّا بعد التحليق في هذا المثلث بتحقيق زواياه، آخذاً من ظن الاتقاء وعلمه وواقعه اليقين.

ويا له من مشهد متناسق في لزام القوتين: نتق الجبل فوقهم كأنه ظلّة، وأخذ الميثاق بقوة، مما يوحي بأنه من معجزاتهم كما نتق الجبل معجزة، بما عرف من إخلادهم إلى الأرض واتباع أهوائهم وفرُط أمرهم وانجذابهم إلى جواذب الفسوق والعصيان ونزعات الطغيان، وكما الجبل منجذب لا محالة إلى الأرض إلّا بقوة الله فليأخذ وإما أوتوا بقوة التصميم حسب المستطاع، وليستعينوا بالله في تحقيق ميثاق الله باستجماع نفس وتصميم.

هذا المشهد الرائع المروِّع المتناسق ينبههم أن المجال في ميثاق الكتاب لا يتحمل أية رخاوة وتميُّع وفلول، ولا أية أنصاف حلول، وإنما هو نتق لجبل الإنيات والشهوات والنزعات، لا سبيل فيه إلّا الجدّ بكافة الطاقات والإمكانيات حيث يودّعون حياة الدعة والرخاوة واللامبالاة ويقبلون إلى الله بكلهم إقبال الجادّ العارف المصمم.

فميثاق الكتاب منهج حياة إيمانية: يقيناً فنظاماً ينظم الحياة في كافة حقولها كما يريد الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وترى أنهم أخذوه بقوة وسمعوه وتذكروا ما فيه؟.. إنهم خادعوا الله حيث تظاهروا - والجبل فوقهم كأنه ظلة - كأنهم موفون بميثاق الكتاب خشية وقوع الجبل عليهم، ثم تولّوا: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ وكان لزاماً نتق الجبل ووقوعه عليهم بعد ذلك: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

ليس فحسب أنهم تولوا من بعد ذلك، بل وقالوا قولتهم الفاتكة بعدما

قيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ -: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[1].

فـ﴿ثُمَّ﴾ في آيتنا تؤخر قولتهم الفاتكة عن واقعة الجبل، وتفسر هذه: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾[2] أنها كانت بعد الواقعة، فلو كانت عندها لوقعت الوقعة حيث لم ينتق الجبل حينه إلّا إخافة.

ولم يكن رفع الجبل إكراهاً لهم في الدين: العقيدة حتى تنافيه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[3] وإنما حملاً لهم على تطبيق الدين بعدما تبيّن لهم كعقيدة، حيث النص: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ فقد كان أخذ الميثاق قبل رفع الطور وبعد ظاهر الإيمان بما أخذ عليهم ميثاقه، ثم تحقق رفع الطور بذلك الميثاق: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ...﴾[4].

ورفع الجبل هذا كان لهم موعظة وذكرى وإخافة «إن لم تقبلوه وقع عليكم الجبل فقبلوه وطأطأوا رؤوسهم»[5]. آية إلهية تزيد في الإيمان بالله، فالتمسك بميثاق الله، والإخافة عن النكثة النكسة عما أخذ عليهم لله، آية يتيمة في تاريخهم لم تتكرر، حيث الآيات التي عاشوها زمن الرسالة الموسوية لم تكن لتحمل إخافة لبني إسرائيل، إلّا هذه التي تضمنها بجنب الحجة والموعظة.

وهكذا ينطق الجبل بنتقه آية إلهية ليست بمقدور مَن سوى الله أن يرفع

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٩٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٥٤.
(٥) نور الثقلين ١: ٨٥ عن تفسير القمي قال الصادق عليه السلام: «لما أنزل الله التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه فرفع الله عليهم جبل طور سيناء فقال لهم موسى عليه السلام: ...».